ثم يعود لذلك الغار والذي يستغرق الصعود إليه أكثر من ساعة، ولم يكن ذلك طوال العام بل (في كل سنة شهراً يتحنث، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة)[1].

لم يكن يمارس العبادة فقط في ذلك الشهر، بل كان ينزل أحيانا ليقوم بأعمال جميلة ورائعة فـ (يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد، وذلك الشهر: رمضان، خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به)[2].

## ليلة الحياة والقرآن

استمر محمد عليه السلام على ما كان عليه فـ (كان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[3]، فكان نهاره على ذروة ذلك الشاهق.. تأمل.. سياحة في هذا الكون الصامت الناطق.. الناثر في الصدور المنشرحة نوراً يهمس: لا إله إلا الله، أما ليله، فتبتل وتضرع، وكأنه يغرف من الليل سكونه وخشوعه.. كأن رياحه الباردة وهي تمر بباب الغار.. تبشر بعودة محبوب طال انتظاره.

واستمر ذلك الحب وتلك المناجاة، حتى جاءت تلك الليلة من ليالي شهر رمضان، وفي لحظة سكون مهيبة، وبعد غياب طويل، هبط كبير الملائكة (جبريل عليه السلام) على قمة الجبل، هبط وتقدم نحو باب الغار، فشعر محمد بخوف وقشعريرة من هذا الغريب الذي يسد باب الغار..

ها هو يقص أحداث تلك الليلة وما حدث له فيقول أنه جاءه (الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ.

---

(١) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.
(٢) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣).

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني.. زملوني.

فزملوه، حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة - وأخبرها الخبر-: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)[1].

إذاً فهذه هي النبوة، وتلك الكلمات هي أول ما نزل من القرآن العظيم.. كلام الله الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم.. يهمي مطراً ينعش وجه الأرض الشاحب بالشرك وأشواكه.. المحفور بالجهل والتخلف، والسحر والشعوذة، فيرويه حياة ونضارة، ليمسك الإنسان المؤمن من جديد بزمام الخلافة في الأرض، فيعمرها بالحب والعدل والسلام، فقد تعبت البشرية من ملاحقة الطواغيت والأشرار لها بأسلحة الظلم والضلال.

نزل القرآن فقام محمد ﷺ برسالة ربه، وأسلمت خديجة فكانت أول من أسلم على الإطلاق، وفرح ورقة وأسلم وبشر رسول الله ﷺ فكان أول من أسلم من الرجال،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

لكنــه لم يعــش إلا فترة قصيرة (ثم لم ينشــب ورقــة أن توفي)[1] بعــد أن زفر بتلك الأمنية، وتمنى الشــباب للكدح لا للمتعة، للبذل والفداء لرسالة جديدة، ولنبي يتربص لـه الاضطهاد خلف أشجار مكة، ويكمن لـه الظلم في طرقاتها. مات ورقة بعد أن حباه اللــه برؤية النبي الذي طالما ذرع الأرض بحثــاً عنه، وقبع على قوارع المجهول ينتظره. هذا بعض ما حدث على الأرض، أما في السماء فهناك:

## ثورة في السماء

فعندما نزل الوحي اشــتعلت أرجاء الســماء حمماً، ولهيباً وشرراً يفتك برؤوس الشــرك ومصانــع الخرافة والضلال.. شــياطين الجــن الذين أرهقوا بعض البشــر ودحرجوهم للحضيض. شــهب غريبــة بدأت تقصفهم، وذلك عندمــا (يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فتكون باطلاً، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك.

فقال لهم إبليس: هذا لأمر قد حدث في الأرض. فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، فأتوه، فأخبروه. فقال: هذا الأمر الذي حدث في الأرض)[2].

إن الله قد وهب الجن قدرات لكن منهم شــياطين أســاؤوا اســتغلالها.. جعلوا يسترقون السمع، ثم يلقون ما استمعوه في بركة من الكذب، ثم يسقونها الكهان الذين يتصلون بهم ويتقربون إليهم، فزادوهم رهقاً وتخويفاً، وجعلوهم يرتكســون في الشرك والشــعوذة، والجن قبائل.. منهم الصالحون ومنهم الفاســدون، و(فلما بعث النبي ﷺ دحــروا بالنجوم، فكان أول من علم بها ثقيف، فــكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه، فيذبح كل يوم شــاة، وذو الإبل فينحر كل يوم بعيراً، فأســرع الناس في أموالهم. فقال بعضهــم لبعــض: لا تفعلوا، فإن كانت النجوم التي يهتــدون بها، وإلا فإنه لأمر حدث. فنظــروا فإذا النجوم التي يهتدى بها كما هي لم يزل منها شــيء، فكفوا، وصرف الله

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

(٢) ســنده صحيح. رواه الطبراني في الكبير ١٢-٤٦، حدثنا عبد الله بن أبي مريم حدثنا محمد بن يوســف، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن ابن جبير عن ابن عباس، ورجاله ثقات ويشهد له ما بعده.

الجن، فسمعوا القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، وانطلقت الشياطين إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا حدثٌ حدثَ في الأرض، فأتوني من كل أرض بتربة، فأتوه بتربة، فقال: هاهنا الحدث)[1].

وهذه قصة أخرى يرويها ويروي مثلها رجل من رموز قريش وأقويائها اسمه: عمر بن الخطاب:

## كاهن وجنية

في يوم بعثته ﷺ كان لأحد الكهان ارتباطه مع جنية، يتحدث الكاهن إلى رجل من أقوى رجالات قريش اسمه عمر بن الخطاب عن جنيته تلك، وعن فزعها في ذلك اليوم العظيم فيقول: (بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني، أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها
ويأسها من بعد إنكاسها
ولحوقها بالقلاص وإحلاسها

فقال عمر: صدق بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل، فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليلح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله.

فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله فقمت فما نشبنا[2] أن قيل: هذا نبي)[3]. لقد ثار الجن واضطربوا وحاروا، وضاقت الأرض بهم والسماء، وأمسى شبح المستقبل خلف دخان الشهب الحارقة، كالجريح يترنح بين آثار القنابل، فلقد أمسى مستقبل الشياطين مخيفاً مرعباً مجهولاً بعد نزول القرآن.. بعد بعثة هذا النبي ﷺ رغم:

---

(١) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة ٣٢٨/٧ وابن سعد ١٦٧/١ وغيرهم من طرق عن حماد وغيره عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذا سند صحيح لولا اختلاط عطاء في آخر عمره، لكن بعض العلماء قال: إن حماد بن سلمة سمع منه قديماً، وسواء كان ذلك أم خلافه فالحديث حسن بما قبله.

(٢) أي لم يمر وقت قصير حتى انتشر خبر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري. مناقب الأنصار ٣-١٤٠٣.

## توقف الوحي

أجـل لقد انقطـع جبريل فلم ينزل بعد تلك الليلة (وفتـر الوحي فترة حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1] وصار بعدها في حيرة لا يدري ما يفعل، ماذا بعد (اقرأ).. ما رسالته .. وما مهمته ..؟ ما المطلوب منه ؟

وللمرء أن يتصور أحاديث النفس ووحشتها في مثل ذلك الظرف. لكن الوحي عاد من جديد، وعادت معه الحياة.

## عودة الوحي

يتحـدث ﷺ عن ذلك اليوم الذي عاد فيه الوحي، وعن تلك المفاجأة التي أخافته حتى وقع على الأرض فيقول: (فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء. فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي، فجئثـت منه فرقاً، حتـى صرت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلـت: زملوني.. زملوني.. فزملوني فأنـزل الله عز وجـل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾[2].

سـقط عليه السـلام على الأرض لهول مـا رأى، فهل رأى جبريـل على صورته الحقيقية الرهيبة المهيبة؟ ربما.

لكـن القرآن جعله يفيق: قم يا محمد، وأزح عنك هذه الأغطية، فما كان بالأمس حلمـاً جميلاً.. أصبح اليوم حملاً ثقيلاً، قم يا محمد، فالأرض مليئة بالقلوب المعتمة، والبطون الخاوية، والأصنام والشرك واستبداد الطواغيت.

ها قد قام محمد ﷺ يحمل سـطرين من القرآن.. سـطرين طالما بحثت عنهما أفكار البشـر، وصل من وصل وتعثر الملايين، فهل هناك حياة دون علم.. دون قراءة.. دون كتابة.. دون نظافة.. دون ترك للأوثان ووحل الخرافة؟ هل هناك حياة دون إقرار بأن هذا الخالق الكريم هو الإله العظيم الواحد الأحد، ولا معبود سواه؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٩٤.

(٢) سورة المدثر. والحديث صحيح متفق عليه.

قام محمد ﷺ بتنفيذ الأمر سراً في البداية، فالأمر جد خطير، لأن للأصنام جيوش من الغضب مستعدة لنحر من يقترب منها، بل وتقديمه قرباناً لها، وقد تناسلت في عقول القوم، حتى أصبح الفرد يصنع صنماً يتبلغ به في سفره، ولو اضطر إلى صنعه من تمرات هي زاده الوحيد. فإذا ما عاث الجوع ببطنه، قام يدس هذا الإله الرخيص في جوفه، لكي يطارد ذلك الجوع المحرق.

ترى هل علم أن جوعه قد مزق إلهه؟ لا أدري.

إن من بلغ بهم الحمق هذه الدرجة يصعب انقيادهم لهذا الدين الجديد، فقد عبثت الأهواء في عقولهم حتى أفسدتها، والعلاج لا بد أن يبدأ بالعقل والفكر، وأمام رسول الله ﷺ ودعوته الجديدة ركام هائل من العادات والطقوس والتقاليد الموروثة.. يتداعى بعضها على بعض على مر السنين، حتى أمست أساطيل من الأوثان والكهان، والناس لها عبيد ذليلة قد حنت ظهورها ركوعاً، فمن يريد رفع الرؤوس للسماء فعليه بالصبر والحذر الشديدين، ولا بد من أن يُسِرَّ دعوته ويخفي اتباعه حتى من أقرب الناس إليه إذا ما أحس بخوف منه، فهؤلاء القوم يفني بعضهم بعضاً من أجل ناقة أو حصان، فما الكوارث التي سيرتكبونها من أجل المساس بآلهة يذبحون لها آلاف النياق ليرضوها بزعمهم؟!!! فليكن الأمر:

## سرِّيَّة

السرية الشديدة يجب أن تحيط كل عمل يقوم به هذا الرسول الأمين ﷺ، فعلى جدار التاريخ الطويل قد علقت رؤوس الأنبياء والمصلحين والدعاة، وأعواد المشانق لا تزال رطبة بدمائهم. ضريبة الإخلاص فادحة تكلف كثيراً، وكثيراً من الدماء، لكن لهذه الدماء الزكية روائح وأطياف تعيش.. تنعش الأجيال، وتبعث الحياة فيهم للخلاص، والحق لا يخفى.. يعرفه الجميع. عندما يرونه يقولون: هذا هو الحق. ولا يحتاجون لتمييزه إلى غسل أعينهم ولا إلى عركها، فما سبب التأخر.. لماذا تثقل الخطى؟ السبب هو:

## الوحوش

وحوش عملاقة تمتد داخل كل فرد منا.. كأننا لها ثياب. وحوش تتصلب حتى تشلنا، وتعجزنا حتى عن الحبو نحو الحق، وإذا كان الحق يرفضها أو يريد إخراجها

مـــن ثيابها، فـــأي مهمة أمام ابن عبد اللـــه ﷺ، وأي حذر يجـــب أن يتوخاه في ذلك العصر.. عصر الوحوش.. عصر العادات والتقاليد المخيفة؟

هذا ما فعله ﷺ عندما بدأ بدعوته، فقد أســـلمت خديجة، وأسلم ورقة، فكتمت خديجة إســـلامها ومات ورقة، فبقي الســـر مكتوماً، ولما أمر ﷺ ببدء الدعوة والإنذار استمر يدعو داخل سراديب من الكتمان والتستر.. استمر يسير تحت الأرض.. يغرس في باطنها جذوراً قوية تؤتى ثمارها بعد حين، بعد أن ترتفع على سطح الأرض، عندها يستحيل انتزاعها أو إنكار وجودها. قد يقول قائل: هذه مبالغة.. فالرسول ﷺ معروف لدى قريش، وأصحابه معروفون، ولم تكن دعوته ســـراً فـــي يوم من الأيام، فأصحابه محميـــون من قبل قبائلهم وأهلهم. فأين تلك الســـراديب والخنـــادق التي تزعم.. أين الدليل على ما تقول؟

الإجابة واضحة كشعر الشمس الذهبي.. الإجابة تكمن في مشكلة لم تحسم حتى الآن ألا وهي:

## من أول من أسلم..؟

من أول من أســـلم بعد خديجة: أبو بكر الصديق، أم علي، أم غيرهما رضي الله عنهم جميعاً؟ لماذا لم تحســـم هذه الإشـــكالية؟ دعونا أولاً نتوجه إلى إســـلام كل فرد منهم:

## إسلام أبي بكر الصديق

أبو بكر الصديق.. اســـمه: عبد الله بن عثمان بن أبـــي قحافة.. صديق الطفولة والشـــباب.. ذهب إليه رســـول الله ﷺ وحدثه أن الوحي قد جاءه في غار حراء، وأن دين الله يأمر بالتوحيد والعلم والنظافة والجمال وترك الأصنام، فما زاد أبو بكر على كلمة واحدة: صدقت. أما لماذا..؟ فلأنه لم يجرب على رسول الله ﷺ كذباً، وهو الذي عاشره منذ الطفولة. لقد عرفه عابداً خاشعاً تاركاً للأصنام، فهل سيكذب على ربه.

خلد التاريخ كلمة أبي بكر وحفظها له، ونال من رســـول الله ﷺ شـــهادة تتناقلها الأجيال.. ففي أحد الأيام كان الرسول ﷺ مع أصحابه، ولعل أحداً منهم تناول أبا بكر

فأغضبه، فغضب ﷺ لأبي بكر، وقالها ليس للصحابة فقط، بل للأمة كلها.. للأجيال كلها: (إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي)[1].

ولما حوصر أبو بكر ببعض الكلمات، أرغمه هذا الحصار على أن يزفر بهذه الكلمات: (ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم، ألست صاحب كذا)[2].

ولما سئل أحد أبناء عم رسول الله ﷺ عن أول من أسلم، أرشد سائله إلى أبيات من الشعر قالها شاعر من الصحابة:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... خير البرية أتقاها وأَعْدَلها

الثاني التالي المحمود مشهده ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

بعد النبي وأوفاها بما حملا ... وأول الناس منهم صدق الرسلا[3]

هذه الأبيات الشجية ملأت القلوب بأيادي أبي بكر ومبادراته لخدمة الإسلام. لقد سمته الأمة بـ (الصديق)، وقدمت صفته على الاسم الذي سماه به أبوه، فإذا ما نطق أحد باسم (الصديق) لاحت تلك الأيادي البيض المبسوطة في الأذهان، وتذكر الناس صديق نبيهم وحبيبه فترحموا عليه.

## إسلام علي

علي بن أبي طالب.. أحد فتيان الإسلام، وابن عم رسول الله ﷺ، وأحد السابقين إلى الإسلام. هناك من يقول: إنه أول من أسلم[4]. علي رضي الله عنه ليس منقطعاً

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٣٩

(٢) سنده صحيح، رواه الترمذي ٥-٦١١ وابن حبان ٥-٢٧٩ من طرق عن شعبة عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال أبو بكر. أبو نضرة المنذر بن مالك تابعي ثقة. التقريب٥٤٦ والجريري ثقة اختلط. التهذيب ٤-٧، وشعبة سمع منه قديماً فصح السند .

(٣) خبر ليس بحديث وهو حسن بطرقه، رواه الحاكم ٣-٦٤ وغيره عن مجالد بن سعيد عن الشعبي سألت ابن عباس، ومجالد ليس بالقوي لكن روى يعقوب بن سفيان (سيرة ابن كثير ١ - ٤٣٥) عن مالك بن مغول وهو ثقة عن رجل: سئل ابن عباس. وهذا الرجل إن لم يكن الشعبي فيقوي روايته السابقة.

(٤) لكونه تربى في بيت رسول الله ﷺ . لكنه ليس هناك حديث صحيح يدل على أنه تربى في بيته، فالذي ورد غير صحيح بل من قول ابن إسحاق ومجاهد. البيهقي ٢/١٦٠.

عن رسول الله ﷺ، لكن أن يكون علي أول من أسلم فهذا ليس بصحيح، لأن خديجة هي الأسبق.. هي أول إنسان قابله بعد انحداره من الجبل خائفاً.

قال أحد الصحابة: (أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه، أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب)[1]. وقال آخر: (أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة علي. وقال مرة: إن أول من أسلم مع النبي ﷺ بعد خديجة علي)[2].

وهناك آخرون غير أبي بكر.. غير علي، ظنوا أنهم أول من أسلم. دعونا نستمع إلى أقوالهم.. دعونا نعرف أخبارهم، لنعرف بعدها سر ذلك الازدحام على الصدارة.

## سابقون..سابقون

لدينا سابق آخر هو: سعد بن أبي وقاص الذي يقول: (ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام)[3]. ترى هل كان سعد رضي الله عنه ثلث الإسلام؟ لا شك أنه يقصد أن خديجة ورسول الله ﷺ هما بقية أضلاع ذلك المثلث.. ثلثي الإسلام، وهو المكمل لهما.

حتى ذلك الغريب القادم من ديار غفار، والذي يطوي الأرض يبحث عن محمد ﷺ.. ذلك الغريب المسمى (بأبي ذر) يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت النبي ﷺ فقلت: السلام عليك يا رسول الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ)[4].

---

(١) سنده صحيح خصائص النسائي ٢ عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة، سمعت زيد بن أرقم. عمرو ثقة التقريب ٤٢٧ وشيخه طلحة بن يزيد ثقة، اتهذيب ٥-٢٩.

(٢) سند حسن، رواه أحمد ١-٣٧٣ من طريق أبي عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس. عمرو مخضرم ثقة عابد التقريب ٤٢٧ وأبو بلج حسن الحديث. التهذيب ١٢-٤٧، وأبوعوانة هو وضاح بن عبد الله ثقة مشهور التقريب ٥٨٠.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٦٤.

(٤) حديث حسن رواه الحاكم ٣-٣٤١: حدثنا الحسين بن محمد بن زياد. ثقة حافظ ١٦٨ حدثنا عبد الله بن الرومي صدوق ٣٢٢، حدثنا النضر بن محمد الجرشي ثقة التهذيب ١٠-٤٤٤ حدثنا عكرمة بن عمار وهو حسن الحديث عن أبي زميل سماك بن الوليد الحنفي ليس به بأس ٢٥٦ عن مالك بن مرثد تابعي ثقة، وللحديث شاهد عند البخاري.

عمرو بن عبسة سابق آخر، يقول: (لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)[1].

أما بلال بن رباح، فلا أعرف أنه قال عن نفسه ذلك، لكن غيره شهد له بالمسارعة للإسلام، فهذا: عمرو بن عبسة يشهد بأن بلالاً كان ثلث الإسلام، فقد قال عمرو للرسول ﷺ: (فمن تبعك على هذا..؟ قال: حر وعبد. يعني أبا بكر وبلال)[2].

وهناك غير بلال ممن هبوا لقبول الحق واعتناق الحقيقة، شهد لهم بذلك التاريخ، فهذا عبد الله بن مسعود يقول: (أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[3] رضي الله عنهم جميعاً.

عمار أحد هؤلاء المستضعفين: (رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر)[4].

هذه الكلمات كلها صادقة، لكن لماذا يلوح التناقض في ألفاظها.. لماذا؟

## للدعوة أسرارها

ماذا يُتَوقع من جيوش الأصنام: أصنام العادات والتقاليد، وشرف الآباء والأجداد، والثارات، وأصنام الحجارة المرصوفة على الأرفف وفي مداخل البيوت، وحتى في خِرج المسافر، وقبل ذلك كله فوق حجارة الكعبة.. تسال لها الدماء، ويحلف بها، وتستشار ويصلى لها، ويذاد عنها بالمال والبنين وزينة الحياة كلها؟

ماذا ينتظر أن تفعل كل هذه الأشياء بنبي يتيم..؟

ماذا يتوقع من قوم لا يقرأون ولا يكتبون ولا يحسبون، ولا يعرفون للثقافة كتابا أو مدرسة؟

---

(١) حديث حسن رواه الطيالسي ١٥٧ حدثنا الربيع بن صبيح قال حدثنا قيس بن سعد عن رجل من فقهاء أهل الشام عن عمرو بن عبسة. وفيه الربيع صدوق سيء الحفظ بالإضافة إلى جهل التابعي، لكن له شواهد كثيرة عند أحمد ٤-١١١ وغيره

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١-٥٦٩

(٣) سنده حسن رواه أحمد ١-٤٠٤ عن زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود، وهو حسن من أجل عاصم وزائدة، وله شاهد من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلاً - ابن كثير ١-٤٩٤ وبه يتقوى.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٣٨.

هـل بالإمكان تغيير هـؤلاء الوثنيين المغرقين في التخلف، الذيـن لم يؤلفوا كتابا واحداً، ولم يبنوا مدرسة ؟

ومـا الذي سـيمكن محمداً من تغيير هذه العقول المتحجرة، وهو لا يملك سـوى شهادة قومه بأنه: صادق أمين؟

مـاذا يُنتظر أن تفعل كل هذه الجيـوش بفرد أو أفراد يريدون أن يجتثوا الخرافة من القلوب، ويغسلوا الأرض والنفوس منها؟

إن مـن أشـعلوا أربعين عاماً بلهب الحروب، وتركوا جماجمهم تمتصها الشـمس والرمضاء، وخلفوا نسـاءهم تنوح حتى أبكت الخيام، من أجل بعير أو حصان.. إن من ارتكبوا ذلك لعلى اسـتعداد لارتكاب أشـرس من ذلك، من أجل عقيدتهم وأصنامهم وميراث أجدادهم، فهل يظن أحد أن يقدم محمد ﷺ قائمةً بأسـماء السـابقين إلى دعوته، ويأمرهم بالمجاهرة بها أمام قريش.. هكذا وبكل سذاجة.؟!

إن هـذا النبي لـم يأتِ لمكة فقط.. مكة خطوة أولـى، والأرض كلها طريق. فهذا النبي جاء ليحيي أموات القلوب، لا ليقامر بحياتهم، لكن لماذا يخاف من إظهار دعوته، ويأمـر أتباعه بهذا الكتمان والتسـتر مـع أن الله قد أنطق له الأحجـار، وأمال عليه الأشـجار وأظله بالسحاب، وشق صدره دون أن يمس بأدنى أذى؟ أليس الله بقادر أن يحميه وينجيه وينصره وأصحابه؟

بلى والله.. إنه على ذلك لقدير. لكن دين الإسـلام جاء عقيدة وحياة للبشر، ولن تستقيم حياة البشر بالمعجزات ينتظرونها كلما أقعدهم الخمول على قوارع الطرقات. ستسـتحيل الحياة انتظار، وانتظار، وعيون ترقب المجهول. لم يخلد نبي، ومحمد ﷺ سوف يموت، وبعده ترفع المعجزات.. عندها الأمة أيضاً سوف تموت.

لكن دين الإسـلام لم يمت ولن يموت، لأنه نزل للبشـر، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، ولم يطالبهم بالمستحيلات، ولم يدعهم إلى مثاليات ليست بمقاييسهم.

لا يقول لهم: كونوا ملائكة. ولا يقول: أنتم شـياطين. بل يقول: كونوا بشراً، ولكن صالحين. وفي الطريق عثرات، لكن الصالحين بشر يعثرون وينهضون، والإسلام يرفع الإنسان من وهدة الحياة وحفرها، ولا يرتفع أو يتخلى عنه لأنه نزل من أجله، فبتوفيق

الله ثم بجهد رسـول الله ﷺ وأصحابه والمسلمين من بعدهم سوف يستمر الإسلام.. سوف ينتصر. ذلك هو ما أراده الله. وبضعفهم وتخاذلهم ينحسر، ويقبع في زاوية من الأرض منتظراً.

وهنا وفي بداية الدعوة نبي يتيم ودعوة مستهجنة، وأمة مجنونة بحب أصنامها، ومواجهتها تعني الموت، فلا بد للرسول ﷺ من تطبيق منهج ربه.. لا بد أن يحتاط ويتكتم.. يدعو سراً.. يطرق البيوت ليلاً.. يحمل النور إلى حجراتها، وهكذا فعل ﷺ.

لقد كان يحدث أبا بكر رضي الله عنه ثم يشير بالكتمان، وإن دعا، ويحدث علياً رضي الله عنه ثم يشير بالكتمان، وإن دعا، وكذلك يفعل مع سعد.. مع عمار.. مع أبي ذر.. مع بلال.. مع صهيب.. مع عمرو بن عبسة مع غيرهم.. مع غيرهم.

إذاً فكيف سيعرف أبو بكر أن غيره قد سبقه..؟! وكيف سيعرف علي أن هناك من دخل في دين الإسلام قبله؟! كيف يقول سعد إن هناك من أسلم في اليوم الذي أسلم فيه؟ كيف سيعلم البقية.. ورسول الإسلام ﷺ يشير عليهم بكتمان دينهم حتى عن أقرب الناس إليهم..؟! وما كان ﷺ يتصرف هذا التصرف من عنده لولا أنها أوامر الله..! إنه لا ينطق عن الهوى، فهل سيتصرف بدون أمر الله..! إنها سنة الله في عمل الأسباب وجعل نتائجها على الله، ولعل في الممارسات الرائعة التالية بعض الإضاءات التي تكشف سريته ﷺ وخوفه على دعاة الإسلام.

## حر وعبد

هذا عمرو بن عبسة السلمي.. يمتطي راحلته نحو مكة، فإذا ما احتضنته شعابها وجبالها.. جد قلبه وشوقه في البحث عن محمد ﷺ وفي ذلك يقول: (كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت: له ما أنت؟

قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي ؟ قال: أرسلني الله. فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت: له فمن معك على هذا ؟ قال: حر وعبد